ابن تاراس بولبا

للكاتب الروسي غوغول

بقلم الأديب ابراهيم زين الدين

« حاصر (الزابورجيون) دوبنو إحدى المدن البولونية يريدون الاستيلاء على أموال أهلها ومواشيهم، وقد سمعوا أن فيها مؤناً كثيرة . وهم إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وأكلوا الأخضر ، وأحرقوا اليابس ، وأهلكوا الزرع والضرع ... ثم يتركونها قاعاً صفصفاً ... »

كانت المدينة كأنها غارقة في سبات عميق، وكانت سقوفها وجدرانها القوية وحصونها الحصينة تلمع على أنوار النيران البعيدة

اخذ أندريه يتمشى بين صفوف القوزاق بينما أخذت النيران التي حف من حولها الحرس النائمون تخمد من وقت لآخر . نام الحرس بعد أن ملأوا أجوافهم من طعام المساء بشهيتهم « القوزاقية » واطمأن أندريه إذ قال لنفسه : « من حسن حظنا أننا لسنا تجاه عدو يخشى جانبه ، وأن ليس هناك أحد نخافه [1] »

أخيراً اقترب من عربة تسلقها واستلقى على ظهره ، وجمع يديه تحت رأسه، ولكنه لم ينم؛ وتطلع إلى السماء الممتدة فوقه فرأى النجوم الكثيرة ، وأحس بالهواء الندى يداعب شعره؛ وكانت النجوم في وسط السماء تغمرها بالنور وبالسحر ...

نسى أندريه نفسه بين هذه الأشياء ، وفجأة غطى السماء سحاب حجبها عن عينيه ثم انقشعت الغيوم وبانت السماء أجمل مما كانت

شبه له في ذلك الوقت أن مخلوقاً حياً غريباً ظهر لعينيه ، فظن لأول وهلة أن هذا المشهد هو من تأثير غفلته الأولى ، ففتح عينيه وحدق في السماء ، فرأى حقيقة وجهاً يقترب منه وينظر في عينيه ، ورأى شعراً أشعث نافراً من غطاء الرأس :

نظرات غريبة ووجه أسمر شاحب جعلاه يعتقد أنه فريسة كابوس وأوهام ، فتناول بندقيته بحركة آلية وقال باضطراب : « من أنت ؟ إذا كنت من الأرواح الشريرة فابتعد عني ؛ وإذا كنت رجلا فانك قد اخترت وقتاً غير لائق للمزاح : إذهب وإلا قتلتك من أول ضربة ! »

فما كان جواب الشبح إلا أن وضع أصبعه على فمه طالباً السكوت والهدوء ... ألقى أندريه سلاحه ونظر بانتباه إلى الشعر الأسود الطويل ، إلى العنق والصدر العاريين. فاذا بالشبح امرأة. ولكنها ليست من بنات جنسه : وجهها أسمر وعليه آثار المرض، وجنتاها بارزتان وعيناها غائرتان . وكلما أطال النظر إليها وجد فيها شيئاً له به عهد . وأخيراً لم يسعه إلا سؤالها : « قولي من أنت ؟ يظهر لي أني أعرفك ، أو شاهدتك في مكان ما ! »

— قالت: كان ذلك منذ سنتين في « كييف ! »

ردد بعدها أندريه « منذ سنتين في كييف؟ ... مجهداً نفسه في استرجاع ما يمكن أن تعيه ذاكرته

(*) من قصة للكاتب الروسي غوغول عنوانها « تاراس بولبا »

(١) قوزاق تعلم أو عاش في « زابورجيه » في المدرسة الحربية

من ذكريات « كياف » ... من دخوله إلى المدرسة وما مرّ عليه ... ثم نظر إليها وصاح فجأة « أنت التترية خادم النبيلة الصغيرة ابنة الحاكم ! »

— فدمدمت التترية قائلة: صه ! وهي تمد يديها برجاء وابتهال وخوف ... ثم رفعت رأسها لترى إذا كان أحد أفاق على صوت أندريه ...

— قولى تكلمي ... لم وكيف أنت هنا ؟ أين السيدة الصغيرة ؟ ألم تزل حية ؟ تكلمي ، أمرعى . قال ذلك بصوت مخنوق من تأثير الشعور الداخلى الذى كان يخالجه

— هى في المدينة !

— فى المدينة ؟ وأحس أندريه بأن دمه تجمع فى قلبه ... ولم كانت فى المدينة ؟

— ذلك لأن والدها هناك ، وهو لم يزل فيها منذ سنة ونصف

— وبعدئذ ... هل تزوجت ؟ ولكن تكلمى كم أنت غريبة الأطوار ... ماذا تعمل الآن ؟

— إنها لم تذق طعاماً منذ يومين ...

— ماذا تقولين ؟

— لم يبق شيء عند أحد من سكان المدينة .. حتى ولا كسرة خبز . منذ زمن طويل والناس لا يجدون ما يأكلونه غير التراب

بقى أندريه صامتاً لا يبدى حركة ... إلى أن قالت التترية : « عرفتك السيدة الصغيرة من بين جميع الزابوروجيين من أعلى القلعة وقالت لى : إذهبى وقولى لهذا القوزاقى النبيل أن يأتى لأراه ... وإذا لم يعد يذكرنى ، فاطلبى منه كسرة خبز لأجل والدتى المسكينة ، لأنى لا أريد أن أرى أمى تموت بين يدى وأحب أن أموت قبلها . . . تضرعى إليه : واركعى عند قدميه ، وقولى له إن له أماً أيضاً. فاذا ما تذكرها أعطاك ! »

واستيقظت مشاعر الشاب واستولت عليه بقوة :

— ولكن كيف جئت إلى هنا ؟ كيف ... وأى طريق سلكت ؟

— اجتزت طريقاً سريًّا تحت الأرض !

— وهل يوجد نفق سرى تحت الأرض ... ؟ وأين ... ؟

— إنك لا تخون أبداً !

— أقسم لك بالصليب المقدس ... !

— هناك تنزل طريقاً منخفضاً وتمر بمجرى الماء عند آخر الدغل

— وبعد ذلك نصل إلى المدينة ؟

— نصل إلى جانب المعبد

— هلمى نذهب حالاً

— ولكن ... قطعة الخبز

— حسن ؛ إجلسى هنا ؛ إبقى فى العربة ... أو اضطجعى بداخلها فلا يراك أحد . الكل نيام . سوف أرجع حالاً ...

واقترب من العربة حيث تراكمت المؤن بعضها فوق بعض وهى مؤن فرقته

خفق قلبه ، وعاوده ما حرص على الابتعاد منه طيلة تلك الأيام بنومه فى الصحارى فى الأيام الأخيرة ، واقترب من حياة الحرب العابسة المقطبة ... عاودته ذكرى امرأة من منزل رفيع ظهرت له كما تظهر من قاع بحر مظلم ... ولمعت فى مخيلته يداها الطاهرتان وعيناها البراقتان وفمها الباسم الضاحك ، وشعرها الجعد بلونه البندق الجميل المسدل فوق كتفيها وعلى نديها ...

وبعثت فى مخيلته كل تقاطيع وجهها بانسجام جميل ...

كلا لم تنطفئ هذه الآثار ولم تمح من مخيلته ، لـكنها ظلت جلية فى قلبه تملو عليها الحياة الصخبة التى سعى إليها ، ولـكن كثيراً ما فكر فيها ، وكثيراً ما كان يضطرب من تأثيرها فى غفواته ... وكثيراً ما بقى مستلقياً بعد استيقاظه ، لايعرف السبيل إلى إيضاح عواطفه وإباناتها

تابع سيره ودقات قلبه تقوى وتتسارع لتذكره أنه سوف يلقاها ، واضطربت ركبتاه ... ولما وصل إلى العربات نسى كل ما جاء من أجله . نسى ما يجب أن يفعل . . حمل يده إلى رأسه مجتهداً فى تذكر ما يجب عليه عمله ...

أخيراً اختلج وأخذته رعشة خوف ، وفجأة جاءته الفـكرة ... إنها سوف تموت جوعاً ...

ألقى بنفسه على العربة وأخذ عدة أرغفة من الخبز الأسـود وضمها تحت إبطه ... ولـكنه فكر : هل يكون هذا الخبز — وهو كاف (الزابورجى) قوى — جشبا متنافياً مع مزاجها وطبيعتها اللطيفة ؟

تذكر عنـدئذ أن القائد عنّف الطاهي ليلة أمس لأنه خبز دفعة واحدة مقادير كبيرة من الطحين ، إذاً لبقى ما يكفى ثلاث مرات ...

فتأكد من أنه سوف يجد ما يلزمه . أمسك بقدر والده الصغير واتجه نحو طاهى الفرقة الذى كان نائماً بالقرب من قدرين عظيمين يسع كل منهما عشرات الأرطال ، ولم يزل الرماد تحتهما ساخناً

ألقى نظرة على القدرين فعلم أنهما فارغان ، نظر إلى قدور الفرقة الباقية ... لا شيء فيها أيضاً ...

فذكر بالرغم منه مثلاً سائراً : « الزابورجيون كالأطفال ، إذا وجدوا شيئاً قليلاً أكلوه ، وإذا وجدوا منه شيئاً كثيراً لم يبقوا على شيء ! »

ما العمل ... ؟ تذكر أن فى عربة والده كيساً من الطحين الأبيض وجدوه عنـد ما سلبوا أحد الأديرة ... اقترب من عربة والده ، ولـكن الـكيس لم يكن فيها . لقد وضعه أخوه أوستاف تحت رأسه ومدد باقى رأسه على الأرض ... وملأ السهل من شخيره ...

أمسك أندريه الـكيس بيده وسحبه بقوة جعلت رأس أوستاف يرتطم بالأرض ويفتح عينيه بألم من أثر الضربة التى أصابته فأخذ يصيح بكل قوته : « أمسكوا هذا العفريت البولونى . اقبضوا عليه ، أمسكوه ، أوقفوا الحصان ! » فصرخ أندريه مأخوذاً بالرعب والخوف : « أسكت وإلا قتلتك ! » ولم يكن أندريه بحاجة إلى مثل هذا التحذير لأنه سكت من نفسه وعاد إلى مكانه من الأرض ، وعاوده شخيره يملأ السهل ويهز الأعشاب التى نام عليها

أجال أندريه نظره فى كل الجهات خوفاً من أن يكون صوت أوسـتاف قد أيقظ أحداً من القوزاق

لم ينهض غير رأس واحد من الفرق المجاورة ، فألقى نظرة واحدة على الجموع النائمة ثم ترك نفسه الى الأرض

انتظر أندريه دقائق قليلة دون حراك ثم حمل ما معه

لم تزل التترية مستلقية فى العربة تتنفس بصعوبة . ولما اقترب منها أندريه قال لها : « انهضى ، الـكل نيام ... لا تخافى ... ولـكن لا يمكنك أن تحملى شيئاً مما أحمل ، وليس فى إمكانى أن أحملها كلها .

قال ذلك ثم حمل على ظهره كيسه ومرّ بالقرب من عربة عليها كيس من الذرة حمله أيضاً ووضع تحت إبطه الخبز الذى أراد أن تحملة التترية . وسار بين صفوف الفوزاق منحنى الظهر خائفاً بين حين وآخر أن يستيقظ أحد

— أندرية ! قال الأب بولبا فى الوقت الذى مرّ فيه ابنه بجانبه . فتوقف أندرية عن المسير وخفق قلبه وأخذ يرجف ثم أجاب بصوت منخفض : « ماذا ؟ »

فقال له أبوه : ممك امرأة ؟ قسماً سوف أضربك عند ما أنهض ، إن النساء لايجلبن لك شيئاً من الخير ، قال ذلك واتكأ على مرفقه محدقاً فى وجه الدثرة بنظاتها

بقى أندرية واقفاً نصف ميت لا يملك القوة على النظر إلى والده . ولما رفع نظره إليه وجده قد نام ورأسه بين يديه

رسم إشارة الصليب وسرعان ما زال عنه الخوف ولما التفت ليبحث عن التترية وجدها واقفة بالقرب منه كتمثال حجرى مظلم ، ملتفة بردائها ، وشماع نار بعيدة تنير عينيها ، فوجدها كديتين قاسيتين أو كميتى ميت . أمسك بطرف ثوبها وسارا ... وكل منهما باق نظرة بعد نظرة وراءه حتى وصلا إلى أرض فيها منحدر كأنه حفرة ، يجرى فى أسفله جدول ماء صغير ، وعلى جانبيه الحجارة والحصى ...

بلغا المنحدر واختفيا عن الأنظار . ولما نظر أندرية إلى ما حوله وجد جداراً يعلو قامة الرجل نبتت فى أعلاه بعض الحشائش البرية ... وفوقهما يلمع القمر كأنه سجن ذهبى ... وهب عليهما هواء خفيف من السهول المشوشبة أعلمهما أن لم يبق وقت طويل على انبلاج الفجر ، لكن لم يطرق سمعهما صياح ديك فى جهة من الجهات ؛ لا فى المدينة ولا فى الجهات المجاورة التى صارت كالصحراء ... لأنه لم يبق ديك واحد منذ زمن بعيد

اجتازا جدول الماء على جزع شجرة ثم وصلا إلى الضفة الثانية ، فوجداها أعلى من التى تركاها كأنها سهل منحدر من طرف جبل ...

هذه الجهة من المدينة آمنة ويمكنها المقاومة ، ولو خرج رجال الحرس لما رؤى واحد منهم ... وكذلك يتعالى سور الدير من الجهة الثانية ويحميها

كانت الضفة الثانية مملوءة بالحشائش البرية ، كثيرة الوعورة يفصلها عن الماء قصب كثير يقارب علوه طول الرجل ، وعند مشرف الوعورة بقايا سياج حدد فيما مضى البساتين والغيط ، ومن أمامهما تعالت أوراق القرطب[1] الكبيرة ووراء السياج نبت العوسج البرى الشائك ... وكذلك نبت العباد[2] فى البقية الباقية من الأرض

عند هذا المكان نزعت التترية حذاءها المرتفع الكعب وسارت عارية القدمين ، رافعة ثوبها في حذر وتحفظ لأن المكان موحل ومليء بالماء ... وتوقفا عندما ولجا طريقاً بين القصب المرتفع ووجدا فتحة لا تزيد على فتحة الفرن

أحنت التترية رأسها وسارت ، وتبعها أندريه محنى الظهر ما أمكنه ليقدر على المرور بحمله . وسرعان ما دخلا فى ظلام دامس

* * *

استطاع أندريه التقدم بصعوبة فى هذا الممر

(١) Bardane — نوع من النبات
(٢) Tournsol — عباد الشمس

المظلم وراء التترية جاراً وراءه أكياس الخبز قليلاً ووصل إلى النور ؛ قالت التترية : نحن نقترب من المكان الذى وضعت فيه الشمل

وكذلك كان . بدأت جدران الأرض المظلمة تضاء بنور شاحب ، ثم وصلا إلى ممر يظهر لأول وهلة كأنه معبد ، فيه طاولة صغيرة مسندة إلى الحائط على هيئة المذبح ، وفوقها صورة العذراء والقديسين ، تكاد لا تظهر من شدة كمود لونها . وعلق بالقرب من هذه الأشياء قنديل فضى اللون يضىء هذه الأشياء

انحنت التترية ورفعت بيدها القنديل الذى تركته من قبل ؛ ثم حركت النار بملقط بجانب القنديل زاد الشماع وقوى ، ثم سارت ورفيقها ، يحفهما تارة نور قوى ، وتارة يكتنفهما ظلام دامس . وظهر التباين الفادح بين وجه الشاب الممتلىء صحة ونشاطاً وبين وجه التترية الأصفر الشاحب ...

أصبح الممر أعرض من ذى قبل ، وتمكن أندريه من الوقوف على طول قامته ، ولاحظ وهو يسير جدران النفق التى ذكرته بممرات « كياف » الأرضية فان الشبه بينهما قريب جداً . ترى الحفرات فى الجدران والأرض ، والقبور منتشرة فى كل مكان ؛ وترى أيضاً فى بعض الأمكنة بقايا بشرية تأثرت بالرطوبة وصارت رفاتا

يظهر أن فى هذا المكان رجالا قديسين هربوا من صخب العالم وحسراته وضلاله ...

كانت الرطوبة قد تمكنت من بعض الأمكنة ، وانتشرت بقع الماء تحت أقدامهما

وقد اضطر أندريه مراراً إلى التوقف عن المسير ليترك لرفيقته الوقت اللازم لترتاح من آلامها التى سببتها لها قطعة صغيرة من الخبز ابتلعتها

قالت بصوت منخفض وهى لا تبدي حرا كا:

« شكراً لله ، هاقد وصلنا ! »

واقتربا من باب حديدى كبير رفعت يدها لتطرقه فلم تسعفها قواها ، فطرق أندريه الباب مكانها مرات انتشر بعدها صدى الصوت ، مما دل على طول المسافة وراء الباب ؛ ثم تغير الصوت عندما اصطدم بحاجز ، وبعد دقيقتين سمع وقع أقدام وحركة المفاتيح فى الباب ثم خرج عليهما راهب بيده شمعة وظل واقفاً على المدرج

توقف أندريه بالرغم منه عند رؤيته راهباً كاثوليكياً يبذر النفور بين القوزاك . . . الذين يعاملونه معاملة أقل إنسانية من معاملتهم اليهود

وتوقف الراهب أيضاً ورجع إلى الوراء عند رؤيته (قوزا فى زابوروجى) . . . لكن كلمة غير واضحة فاهت بها التترية طمأنته فأضاء لهما الطريق وأوصلهما بعد أن أوصد الباب إلى أعلى الدرج حيث وجدا نفسيهما بين أروقة الكنيسة المظلمة

وقف بالقرب من المذبح حيث علقت الشمعدانات الكبيرة وأضيئت بالشموع ، ثم جثا على ركبتيه وأخذ يصلى بخشوع . وبجانبه جثا شابان يرتلان الألحان ، وعليهما ثياب خضر فوقها قمصان بيضاء مزركشة الجوانب والأطراف ، وبيد كل منهما مبخر ... يصلون بخشوع للمعجزات والخوارق الالهية ، يصلون لأجل تخليص المدينة واسترجاع شجاعتهم ، يصلون لله ليهبهم الصبر ويبعد عنهم الأرواح الشريرة التى توسوس لهم بالشكوى وتحثهم

عليها بالهدوء في أعينهم ، وتسلبهم شجاعتهم أيام المصائب الأرضية

بعض نساء كالأشباح ركعن مستندات إلى الكراسي ووضعن رؤوسهن بجانب القاعد الخشبية السود .

وبعض رجال اتكئوا على الأعمدة القائمة في وسط القاعة وركعوا بحزن وأدوا صلاتهم بخشوع

أصاب شعاع الصباح الضئيل النافذة ذات الزجاج الملون ، فأرسلت أنواراً على شكل مربعاتها زرقاء وصفراء ، وغيرها من الألوان . فأنيرت الكنيسة فجأة ، وظهر المذبح بالرغم من شدة سواده محاطاً بالأنوار الساطعة ... وشاهد أندريه بدهش من ركنه عظمة النور ... »

تعالى صوت الأرغن في ذلك الوقت وملأ الكنيسة الفسيحة ، وأخذ يقوي من وقت لآخر ويتعالى كثيراً ويتحول إلى قصف رعد عظيم ، ومنها يتحول إلى لحن موسيقي ناعم يتعالى من وقت لآخر تحت الأروقة ثم يتغير من حال إلى حال حتى يصبح حاداً يذكر بأصوات الفتيات الصغيرات ... ثم يعود إلى القصف والرعد ... ثم يسكت

وبعد ذلك ارتفع الصوت من جديد وانتشر بين الأروقة والأعمدة ، وأندريه فمه نصف مفتوح يصغي إلى هذه الموسيقى العذبة

أحس عندئذ أن أحداً يمسك بطرف ثوبه : « لقد حان الوقت » قالت التترية ذلك واجتازا الكنيسة من غير أن يلحظهما أحد وأطلا على ساحة بالقرب منهما

منذ زمن طويل والفجر يضيء السماء بلونه الأحمر ، وكل شيء يعلن ظهور الشمس . كانت الساحة المربعة الشكل خالية تماماً ولم يزل في وسطها بعض مناضد سود دلت على أنه كان هنالك منذ أسبوع تقريباً أسواق البلد ، والطريق التي لم تنظف منذ ذلك الحين كانت مملوءة بالأوحال الجافة

كانت الساحة محاطة من كل جوانبها بمنازل صغيرة مبنية بالحجارة أو الآجر مؤلفة ، من طابق واحد وحولها الأعمدة الخشبية المرتفعة ، وكلها من صنع أصحابها وسكانها وهي شبيهة بمنازل ليتوانيا وبولونيا . كانت كلها مغطاة بسقوف على غير انتظام وفي بعض جدرانها نوافذ صغيرة لانارتها

وعلى أحد الجوانب ظهر منزل على غير طراز المنازل في المدينة ، عرف فيه (فندق المدينة) أو غيره من دور الحكومة . كانت تلك البناية مؤلفة من طبقتين ، وفي أعلاها جناح خصص للحراسة ، وعلقت ساعة كبيرة في الحائط

ظهرت الساحة كأنها ميتة

لكن أندريه سمع أنيناً ضعيفاً منبعثاً من الجهة الثانية ...

حدق في المكان فرأى جماعة من ثلاثة رجال مستلقين على الأرض بلا حراك تقريباً ، وحدق النظر فيهم أكثر ليتبينهم إذا كانوا أمواتاً أو أحياء

وبينما هو سائر اصطدمت قدماه بجسم ممتد على الأرض : كان ذلك جسم امرأة يهودية على ما يظهر — ما تزال شابة بالرغم من آثار الضعف والهزال البادية على وجهها مما يمنع تقدير سنها . وضعت تلك المرأة على رأسها غطاء من الحرير الأحمر وزينت قبعتها بجواهر — ربما كانت زائفة — وأسدلت بعض شعرها الجعد على عنقها الجاف المنتفخ الأوداج

وانطرح بالقرب منها طفلها ممسكا ثديها بشدة قارصاً إياه بين أصابعه بحركة غير إرادية ... ولا يجد فيها لبناً ... لكنه لم يبك ولم يصرخ ... ولا يمكن الحكم على حياته إلا بحركات بطنه الذى ينتفخ ويهبط ببطء لافظاً من بين شفتيه أنفاسه الأخيرة

تابعا سيرهما فى الشارع ؛ لكنهما توقفا فجأة أمام رجل هائج تقدم منهما عند رؤيته حمل أندريه الثمين ، وارتمى عليه كالنمر الهائج وأمسك بتلابيبه وصاح : « خبز ! » ولم تباعده قواه أكثر من ذلك فأبعده أندريه عنه فوقع على الأرض ، وأخذته الشفقة عليه فألقى إليه بلقمة خبز ارتمى عليها الرجل كالكلب الهائج وعضها بين أسنانه وابتلعها وهو يرسل معها أنفاسه الأخيرة ... بين هياجه وتشنج أعصابه من تأثيرها

خرج الناس من منازلهم ظانين أنهم بعملهم هذا ربما تنزل عليهم معونة من السماء ترد إليهم قواهم

وأمام منزل جلست عجوز القرفصاء ورأسها بين يديها فلا يمكن معرفة ما بها . هل هى نائمة أو مغمى عليها أو هى جالسة بلا حراك إلى الأبد ..

وظهر من سقف أحد المنازل حبل مربوط فى أسفله جسم رجل مدلى لم يتمكن ذلك المسكين أن يصبر أكثر مما صبر على هذه الآلام ، فعجل لنفسه الموت بانتحاره ...

لم يتمالك أندريه نفسه عند رؤيته هذه الأشياء فسأل رفيقته : « هل حقيقة لم يجد هؤلاء الناس ما يمسكون به حياتهم ؟ عند ما يصل الرجل إلى حالة لا يمكن معها أن يعمل شيئاً ، ولا يجد ما يأكله بأية طريقة كانت ، يمكنه أن يتغذى بكل شىء ، يمكنه أن يأكل الحيوانات المحرمة عنه . كل شىء يصبح صالحاً لطعامه ! »

— لقد أكلوا كل شىء ! أكلوا القطط والحيوانات بأجمعها ، وإنك لا تجد فى المدينة لا حصاناً ولا كلباً ولا هراً حتى ولا فأراً

— ولكن كيف يمكنكم وأنتم لا تجدون ما تأكلون أن تدافعوا عن المدينة إلى اليوم ؟

— نعم ! من الممكن أن يسلم الحاكم المدينة ، ولكن القائد الذى فى « بوزداك » أرسل اليناير سالة مع الحمام يأمرنا ألا نسلم المدينة ، وأنه عارج نحونا مع جيش لينقذنا ، ولكنه ينتظر لذلك قائداً آخر ليتمكنا من الحضور فى وقت واحد ... ونحن فى انتظارهما من وقت لآخر ... ولكن ها نحن قد وصلنا إلى البيت ...

رأى أندريه المنزل من بعيد ليس هو فاذا كغيره من منازل المدينة ، يظن أن مهندساً إيطالياً شيده على طابقين بقرميد دقيق جميل . نوافذ الأول متوجة بشكل جميل مرتفع ؛ والثانى مؤلف من أروقة وغرف كبيرة ، وتظهر من بين الأعمدة أسلحة العائلة المعلقة على الجدران

يصل سلم القصر العريض إلى الساحة ، وعند أسفله وقف الحرس حاملين سلاحهم الأبيض بيد ، وممسكين بيدهم الأخرى رؤوسهم المنحنية على صدورهم ، وهم فى موقفهم هذا أشبه التماثيل منهم إلى الناس

إنهم لم يناموا ولم يغفلوا أبداً ، ولكنهم لا يشعرون بما حولهم حتى لم يروا اللذين مرا أمامهم

وعند أعلى السلم وقف جندى بثيابه الثقيلة

التالية حاملا فى يده كتاب الصلاة . وعندما مرّ أندريه بالقرب منه رفع إليه نظرات دهشة ، لكن التترية قالت له كلمة رجع بعدها نظره إلى كتاب صلاته ...

دخلا أولا غرفة فاذا هى متسعة الأركان متباعدة الجوانب كأنها قاعة استقبال ، مليئة بالجند المسندين إلى الجدران على أوضاع مختلفة ، والخدم والحرس والسعاة وغيرهم من رجال الخدمة اللازمين لشرف رجل بولونى عظيم ، أكان رجل حرب أم مطلق سيد كبير ؟

فى وسط القاعة شمعة على وشك الانطفاء ، واثنتان تضيئان فى شمعدانهما الكبير بالرغم من أشعة الصباح التى دخلت من النافذة الكبيرة

ترك أندريه هذه الغرفة واتجه نحو باب حديدى مزدان بأنواع الأبسطة فأمسكته التترية من يده وأشارت بيدها إلى باب صغير فى آخر الجدار

اجتاز هذا الباب إلى ممر ضيق ثم إلى غرفة أخذ يتفحصها بدقة . وكانت الأنوار التى تدخل من فتحاتها تنتقل من أثاث إلى آخر وتقع على قطعة هندسية أو لوحة فنية أو ستار أحمر

هنا قالت له التترية أن ينتظر ، وفتحت باباً يطل على غرفة ثانية كانت مضاءة بنور الموقد ... سمع دمدمة ثم صوتاً خافتاً جعله يرتجف ... ورأى من خلال الباب خيال فتاة يمر بسرعة ، رافعة بيدها شعرها الطويل

خرجت التترية ثانية وسمحت له بالدخول ، ولم يذكر أندريه كيف دخل ولا كيف أغلق الباب وراءه ولا كيف وجد نفسه وسط الغرفة

وجد غرفة منارة بشمعتين بالقرب من صورة العذراء فوق طاولة صغيرة على حسب عادة الكاثوليك ، وعند أسفل الطاولة وضع كرسى صغير للركوع عليه وقت الصلاة

وجد نفسه فى الغرفة ، ولكن ليس هذا ما يبحث عنه

أدار وجهه إلى الجهة الثانية ، فرأى امرأة كأنها مثلجة ومتصلبة بوضع غريب ، وظهرت كأنها تهم الوقوع عليه ، ثم توقفت فجأة وهو أيضاً بقى واقفاً مشدوهاً ...

لم يتخيل أنه سيلقاها على هذا الشكل . ليست هى ليست التى عرفها ورآها من قبل ، ليس فيها شىء يشبهها ... تلك كانت عذبة وجميلة أكثر من هذه ، وكان لها مزايا لا نهاية لذكرها ووصفها . أما هذه فهى جميلة ، ولكنها تشبه لوحة انتهى الرسام من آخر ريشة فيها

كانت فتاته القديمة مرحة شهية غير مضطربة . أما هذه فهى جميلة ، وهى امرأة بكل مافيها من لطافة ، وظهرت فى عينيها الطوباتين علامات التألم وطفرتا بالدموع التى لم يكن لها الوقت الكافى لتجف ، فظهرتا رطبتين لامعتين نافذتين إلى القلب ، فالصدر والقلب قد حافظا على اعتدالها وجمالها

وشعرها الذى كان فيما مضى مجعداً مجمماً أصبح الآن مرسلا . خصلة منه على ظهرها والثانية على على كتفها وذراعها وصدرها

لقد طرأ عليها تغير عام . واجتهد أندريه أن يتذكر شيئاً فى فتاته الأولى يشابه التى أمامه ولكن عبثاً حاول . لم تبق فى ذاكرته إشارة واحدة تنطبق على هذه

وبالرغم من أنها لم تحافظ على جمالها القديم فقد زادها اصفرارها جمالاً عن ذى قبل ، جمالاً لا يقدر ولا يقارن

وشعر أندريه بخوف واحترام فى قلبه وبقي لا يبدى حراكا . وهي أيضاً بقيت متأثرة بمشاهدة الشاب القوزاق الذى ظهر لها فى أبهى صورة لجمال الرجل الشاب وقوته . وعلى الرغم من سكونه فقد تأجج صدره بشتى العوامل ، ولمعت عيناه ببريق الشدة، وتجمع حاجباه على شكل نصف دائرة فدلا على جرأته وإقدامه . ولمعت عيناه بقوة وكذلك شارباه السوداوان اللذان يشبهان الحرير

— كلا، ليس لدى وسيلة يمكننى أن أشكرك بها أيها الفارس النبيل . قالت ذلك وصوتها الفضى يتهدج ... إن الله وحده يستطيع أن يكافئك ... ليس ذلك فى مقدورى ، أنا المرأة الضعيفة ...

وخفضت عينيها وحجبتهما تحت جفنيها المسلحين بأهداب طويلة كالسهام . . . ونكست رأسها واصطبغ وجهها بحمرة خفيفة

لم ينبس أندريه بكلمة ... أراد أن يظهر ما يضمر أراد أن يتكلم بتلك القوة والحرارة اللتين فى قلبه ولكنه لم يفلح ، وأحس بشيء يمسك شفتيه ويحبس صوته

أحس بأن ليس له ، وهو الذي انتظم فى الحياة العسكرية الحربية وتعلم في المدرسة ، أن يجاوب في مثل هذه الظروف التترية

عندئذ دخلت التترية الغرفة وقد قطعت الخبز الذى أحضره الفارس إلى قطع صغيرة وأحضرته فى صحيفة من فضة وضعته أمام سيدتها

نظرت الفتاة إلى الخبز ثم رفعت بصرها إلى أندريه وكان فى نظراتهما معان كثيرة ، وهذه النظرات التى كانت تقول بالمستحيل وعدم القدرة على إظهار العواطف المتيقظة ، فهمها أندرية وأدرك معناها أكثر من إدراكه أى حديث آخر

وفجأة تذكر أنه أصبح حراً ؛ وأن حركاته وشعوره لم يعودا مقيدين كما كانا من قبل ، وتحفزت نفسه للكلام ، وفتح فمه يريد أن يرسل أقواله كالسيل المنهمر ...

لكن الفتاة الجميلة أدارت رأسها نحو التترية وقالت لها : وأبى ؟ هل أحضرت لها شيئاً ؟

— هي نائمة

— وأبي ؟

— قدمت إليه الطعام وقال إنه سوف يأتى بنفسه ليشكر الفارس

وتناولت الفتاة قطعة من الخبز حملتها إلى فمها بين أصابعها الدقيقة . ونظر إليها أندريه وهى تقطعها بأسنانها ... وفجأة ذكر ذلك الرجل الذى لقيه فى الطريق وهو يكاد يموت جوعاً ، وذلك الذى أسلم الروح وهو يزدرد اللقمة التى ألقاها إليه

علت وجهه صفرة ثم أمسك بذراعيها وصرخ :

« كفى ! لا تأكلى أكثر من ذلك. مر عليك زمن طويل لم تذوقى طعاماً. وربما سبب لك الخبز ضرراً !

تركت يدها تقع ووضعت قطعة الخبز ثم نظرت إلى عينيه بهدوء نظرة الطفل ، ولم تنطق بكلمة

لا يمكن لمنحت المثال ولا لريشة الرسام ولا لفعل مهما قوى أن يعبر عما تكنه نظرة فتاة

صرخ أندريه وهو ممتلئ قوة روحية وعاطفه قلبية : تاريتزا(١) ماذا تريدين ، ما يلزمك ؟ مرينى أن أعمل شيئاً لا يقدر على عمله الرجال اطلبي مني المستحيل امرع إلى إنجازه . اذهب إلى الموت ، والموت فى سبيلك عذب شهى لدى

عندي ثلاث مزارع ،ونصف قطمان والدى هى ملكى، وكل ما أحضرت والدتى لوالدى ، وما تحبى له أيضاً . كل ذلك لى ، وعندى أسلحة ليس لأحد من القوزاك مثلها

إنى أخرج عن هذه الأشياء . أنى أترك كل ذلك : أرميه ، أحرقه ، ألقيه فى الماء عندما تلفظين كلة واحدة ، بل وأقل من كلة : عندما تحركين حاجبك الأسود الدقيق . ولكني اعلم أن عزمي هذا ربما كان جنونياً . هل عبث كل ذلك ؟... أو ليس لى الحق وقد أمضيت حياتى فى (زابور وجيه) أن أتكلم أمامك كما يتكلم الناس أمام الملوك والأمراء؟

أرى أنك مخلوقة إلاهية ، تختلفين عنا تمام الاختلاف ، ولاتشابهك إحدى نساء الأشراف ولا بناتهن . . نحن لسنا صالحين لنكون عبيداً لك ، فقط وملائكة السماء وحدهم يصلحون لخدمتك ! »

بقيت الفتاة مأخوذة بعاطفة سامية لا تنطق بكلمة مصغية كلام الشاب الصريح الخارج من قلب صاف نقى كالمرآة تبين فيها روح الشاب المتأجحة ...

أحنت الفتاة رأسها إلى الأمام وألقت شعرها إلى الوراء وفتحت شفتيها ونظرت إليه طويلا ثم أرادت أن تقول شيئاً ، ولكنها توقفت فجأة وتذكرت أن أمامها شاباً قوزاقيا له هدف معين وله أب وإخوة ، وكل أهله ومواطنوه واقفون وراءه ناقمين . . . ما أظلم أولئك القوازق الذين يحاصرون المدينة ! وامتلأت عيناها بالدموع فأمسكت منديلها الحريرى وألقته على وجهها . . . أما هو فغشيت عينيه سحابة

بقيت كذلك برهة ورأسها الجميل إلى الوراء وشفتها السفلى بين أسنانها العاجية كأنها أحست ذبابة سامة . ولم ترفع المنديل عن وجهها حتى لا يلاحظ الآلام التى تكابدها

قال لها أندريه: قولى كلة واحدة ... ؛ وأخذها بين ذراعيه وأحس بنار تسرى فى عروقه ، وضغط على اليد التى بقيت بلا حراك بين يديه ... لكنها ظلت ساكنة لا ترفع المنديل المسده على وجهها ولا تأتى بحركة فقال :

— لماذا أنت هكذا حزينة ؟ قولى لماذا أنت حزينة ؟

فألقت المنديل جانباً ورفعت خصلات الشعر التى سالت على عينيها وأخذت تنطق بكلمات ممزوجة بتنهدات فى صوت ضعيف شبيه بالهواء النبعث آخر النهار فى الأصقاع الممتدة وأكوام القصب الترامية عند مجارى المياه؛ أصوات خفيفة ترتفع مدمدمة ، ويقف المسافر يصغى إليها بآلام شديدة ... لا يشعر

(١) كلة روسية معناها ملكة صغيرة

بالنهار الذى يولى ... ولا بالأغانى البهيجة المتصاعدة من أفواه الفلاحين العائدين من أعمالهم فى الحقل

— ألست جديرة بحنان دائم ؟ أليست شقية تلك الأم التى وضعتنى فى هذا العالم ؟ هل قدر لي أن أحيا حياة مرة ؟

ألست أنت الباعث على آلامي أيها القدر القاسى ؟ لقد وضعت تحت قدمى أعظم رجال البلاط وأغناهم وأشرفهم ، وكلهم من الملاك والمثرين ، وكلهم كان يتمنى أن يحبنى ؛ وكلهم حسب حبي فوزاً عظيما له ، ولم يكن على إلا أن أشير إشارة صغيرة حتى يصبح أكثرهم مالاً وأجلهم وجهاً وأرفعهم حسباً زوجاً لى

عجيب أمرك أيها القدر القاسى ، لم تجعل قيادى لأحد ! من رجالنا ولكنك جعلتنى أسيرة لغريب . . . لعدو . . .

لأى سبب أيتها الأم الالهية المقدسة[1] ومن أجل أية خطيئة تتبعيننى هكذا بدون شفقة ولا رحمة ؟

لقد مضت أيامى رغيدة طيبة ، لا أتناول طعامى إلا فى أثمن الآنية ، ولا أشرب خمورى إلا فى كأس مترعة ... فلم تبدل كل هذا ؟ الأجل أن أموت ميتة أفقر رجل فى المملكة ؟ ولم يكف أن قدر لى مثل هذا الحكم . لم يكف أننى قبل أن أموت يجب أن أرى أمى وأبى على شفا حفرة من الموت من العذاب أشده . كل ذلك لم يكف ، وأهلى يريدون تسليم المدينة التى أدفع ثمنها حياتى عشرين مرة ... أوجب على وأنا أقرب من نهايتى أن أرى ... وأسمع أحاديث حب لم أسمع بمثلها من قبل أبداً ، وأن أشعر بهذه الأحاديث تمزق قلبي وتزيد فى حرارة ماقدر لى ، وأن آسف على حياتى الشابة الأولى . . . وأن أرى قسوة الموت ، وأن أبغضك وأكرهك وألعنك أيها القدر ... اغفرى خطيئتى ومذلتى أيتها الأم الإلهية المقدسة »

وعند ما سكتت ظهرت على وجهها علامة غير منتظرة ، كل ملامح وجهها تكلمت ، وكل شىء فيها : من جبهتها المنهوكة وعينيها المليئتين بالدموع التى تسيل وتبرد وتجف على خديها المنتفخين قليلا كل شىء كان يقول : «لا سعادة فى هذا الوجه !»

— قال أندريه : لم يسمع أحد بمثل هذا فى العالم بعد . إن من المستحيل أن يكون ذلك . إن من المستحيل على أجمل امرأة فى العالم أن تتحمل مثل هذه الآلام ، إنها لم تخلق إلا ليركع أمامها الحب كما يركع أمام تمثال العذراء . . . كلا ، لن تموتى . أقسم لك بيوم ميلادى وكل شىء عزيز على فى العالم أنك لن تموتى . وإذا قدر ذلك ولم يمكن تجنبه لا بالقوة ولا بالصلاة ولا بالارادة القوية ، فلتمت معاً ، ولأكن أول من يموت تحت قدميك

— فقالت له وهى تحرك رأسها بهدوء : لا تخدع نفسك ولا تخدعنى ، أنا أعلم أن ذلك هو شقائى الأعظم ، أنا أعرف أن من المستحيل عليك أن تحبنى . أنا أعرف واجبك وإيمانك : أبوك وإخوانك ووطنك كلهم يدعونك ، أما نحن فلسنا الا أعداءك ... !

— فقال لها : وماذا يهمنى من أمر أبى وإخوانى ووطنى ؟ ثم ونهض بقامته الطويلة

(١) Saive Mére Ditnine

كشجرة الحور عند أطراف الغدير : وإذا كان الأمر كذلك فليس لى أحد، ليس لى أحد أبداً...

كرر ذلك بصوت عال محركا يده حركات رجل قوزاق عنيد مصمم على رأيه

... من قال إن أوكرانيا هى وطنى ؟ ومن أعطانى إياها وطناً ...؟ الوطن هو الخير الذى تبحث عنه أرواحنا ، وهو أعز ما لديها . وفوق كل شيء وطنى هو أنت ، هاك وطنى وسأحمله . سأحمل ذلك الوطن بين حنايا قلبي ، سأحمله إلى اليوم الذى تحين فيه ساعتى ، وسوف نرى إذا حاول أحد القوازق أن ينتزعه من هنا ...

وكل ما لدى كل ما أملك ، أبيعه ، وأحرقه ، ألقيه فى الماء من أجل هذا الوطن !

ظلت الفتاة برهة مأخوذة بكلماته ، كأجمل تمثال ، تنظر إلي عينيه ، ثم أجهشت بالبكاء وارتمت عليه ، وأحاطت عنقه بذراعيها ، كأجمل امرأة لها قلب كبير خلقت للحوادث الكبيرة ، وظهرت بذلك المظهر النسائى الذى لا يمكن لواحدة غيرها أن تظهر به

عندئذ سمع صوت طبول وحركة غير اعتيادية صادرة من الشارع ، لكن أندريه لم يسمع شيئاً ، لم يشعر بغير الشفتين تتدفقان عليه من رحيقهما المعسول ، وتردد أنفاسهما العذبة ، ودمعها الذى سال على خديها ، وشعرها المعطر الذى أحاطه وغطاه بكامله بين لمعان حريره الأسود

دخلت التتر في هذه البرهة وهى تجرى وتصيح قائلة : « لقد نجونا ، نجونا ، لقد عاد رجالنا . لقد أحضروا خبزاً وطحيناً وشعيراً ، وقد أحضروا معهم بعض أسرى الزابوروجيين ! لكنهما لم يسمعا شيئاً ، لا هى ولا هو ، ولم يعرفا عن أى رجالنا تتكلم التترية ولا عن أى أسارى ...

أما أندريه فلم يعد يشعر بغير الشفتين المعطرتين الملتصقتين بخده ، والشفتين المعطرتين تقابلانه بالمثل . وفى هذه القبلات المتبادلة شعر أندريه بما يحق للرجل أن يشعر به ولو مرة فى حياته

« ... لقد ضاع ذلك القوزاق ، وأضاع فروسيته القوزاقية . إنه لن ير بعد اليوم « زابوروجيه » أبداً ولا مزارع والده ولا كنيسة الرب

وكذلك « أوكرانيا » ! إنها لن ترى بعد اليوم أشجع أبنائها الذى أخذ على عاتقه الدفاع عنها

أما الأب « بوليا » فقد جز شعره الأبيض من خجله ، ولعن الساعة التى رزق فيها مثل هذا الابن

ابراهيم زيد الدين

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية

مـ	
٥٠	السنة الأولى فى مجلد واحد
٧٠	كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة فى مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشاً فى الخارج عن كل مجلد

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى – عابدين)